
christian-lib.com
تحولات..
تأملات فى
الحالة النفسية والروحية
لمريض السرطان
موريس خليفه زخارى

تحولات ...

تأملات في الحالة النفسية والروحية

لمريض السرطان

خبرة خاصة

(رؤية مسيحية)

إعداد

أسرة الرجاء بكنيسة الشهيد العظيم مارمينا

فلمنج - الإسكندرية

٢٠٠٤

اسم الكتاب : تحولات ...
الناشر : أسرة الرجاء بكنيسة الشهيد العظيم مارمينا - فلمنج - الإسكندرية.
الطبعة : الأولى - ٢٠٠٤ م
المطبعة : مطبعة دير الشهيد العظيم مارمينا العجائبي بمريوط.
تصميم الغلاف : عماد أليشع - ت : ٥٤٦٣٧٠٦
إخراج فني : بطرس القس صراباموون عطية.
رقم الإيداع : ١٠٤٠٥ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولي : I.S.B.N. : 977 - 6138 - 01 - 2



قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٧

مقدمـة

....

قال أحد المجرَّبين:

" لقد عرفتُ عن اللَّه ، منذ أن وصلتُ إلي فِراش الألم ، أكثر مما عرفتهُ طوال حياتي ".

وقال ذهبي الفم:

" حُب اللَّه العجيب يُستعلن وسط الظروف التي تقطع الرجاء، هنا فقط، يُظهِر اللَّه قوته ".

أما يوحنا الدَرَجي فقال:

" رحمة اللَّه لا حدّ لها، ولا شيء يفوقها، وهذا هو السبب في أن من ييأس منها تصير هى علة موته ".

هل تذكر شوكة بولس الرسول ؟

لقد أصابه ألم جسدي شديد. ماذا عمل ؟ سأل اللَّه أن يفارقه هـذا الألم. ماذا قال اللَّه له ؟ " **تكفيك نعمتي، لأن قوتي في الضعف تُكمل** " (٢كو١٢ : ٩).

إن اللَّه لم يسمح أن تفارقني الشوكة (المرض الجسدي)، ولكنه أعانني كي أحيا بالشوكة، وأن يحوّلها إلي سبب قوي لعمل النعمة في الكرازة ببشارة الفرح !

ما أروع ما سجلّه في (رو٨: ٣٥-٣٩)

لا موت

ولا حياة،

ولا ملائكة

ولا رؤساء ولا قوات،

ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة،

ولا علو (بالانجازات)..

ولا عُمْق (يأس)..

ولا خليقة أخرى..

تقدر أن تفصلني عن محبة اللّه!

إن أسرة الرجاء بكنيسة مارمينا بفلمنج التي تجاهد في خدمة حالات أمراض القلب والكلي والسرطان من مرضى، وعائلات المرضى واحتياجات العلاج، واحتياجات الحياة الضرورية، كما تحرص علي رفع ذبيحة خاصة من أجل كل نفس مثقلة بالمرض.

وأسرة الرجاء رأت أن تُقدِّم لك، ضمن خدمتها هذا الكتاب؛ لقاءً حياً بل أقول خبرة معاشة، يحدثنا فيها الأستاذ موريس خليفه زخاري، وهو كاتب ومؤلف، عن التحولات النفسية والروحية التي يمر بها مريض السرطان، ويعرض لنا ملحمة الصراع بين الرجاء في الشفاء العاجل والرغبة في اللقاء الأبدي في مِصداقية كاملة، إذ عايش بنفسه هذه الأمور، في حالة زوجته، في اختبار حيّ. كما يُقدِّم لنا نصائح وملاحظات لزائري المريض وللأطباء، جديرة أن نراعيها.

وفي الحقيقة، إنه يجول بنا في عالم المريض الداخلي .. والخارجي، بل ينقلنا إلي ما وراء الألم، إلي رؤية السماء المفتوحة وشهوة إنطلاق الروح ..

وهذه الصفحات سوف تجعلك تُدرك بُعْد الشقة بين السماع والاختبار؛ فالسماع معرفة أما الاختبار فهو حياة، والسماع خبر أما الاختبار فهو ألم. وأيضاً سوف تتيح لك أن تلتقي بمعني اللذة في الاختبار، والنصرة في الألم .. حتي ولو كان لقاءً علي الورق.

إنها رسالة لكل مريض.

ولكل مُجرَّب.

لعلّه يكتشف محبة اللّه الفائقة الحد في كل ظروف الحياة.

ببركة صلوات أمنا العذراء الشفيعة في المتألمين والقديس مارمرقس والقديس مارمينا شفيع أسرة الرجاء، وبصلوات قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث الذي يُبعِث فينا دائماً، روح الرجاء بكلماته المُعزية.

ولربنا المجد الدائم إلي الأبد. آمين.

رائد الأسرة

القس صرابامون عطية

تحولات طيبة مع مرض خبيث !

تأملات في الحالة النفسية والروحية

لمريض السرطان

خبرة خاصة

(رؤية مسيحية)

موريس خليفه زخاري

٨ مايو ٢٠٠٤

الإهـــداء

إلى أسـرة الرجاء

بكنيسة الشهيد العظيم مارمينا

فلمنج ـ الإسكندرية.

تقديراً لخدمتها الإنسانية والروحية.

واثقة في وعد الله بأن :

" لكل الأحياء يوجد رجاء "

م.خ

توطئة ...

يروي عن أحد الآباء المعاصرين، المعروفين بالقداسة، أنه وصف مرض السرطان بأنه " **مرض الفردوس** "، وقد انتقل هذا الأب القديس إلى الفردوس مصاباً بهذا المرض*.

ورغم غموض هذه العبارة - مما يجعل الاختلاف حولها وارداً - إلا أنه من المؤكد أن مرض السرطان بما هو شائع عنه، يحمل رسالة إلى الشخص الذي يصاب به، بأنه قد دخل نفق الموت، أو على أقل تقدير قد وقف على أعتابه، وذلك يرجع لما هو معروف بأن العلم لم يتوصل بعد إلى علاج يؤدي إلى الشفاء من هذا المرض بصورة أكيدة. ومع تشابه أغلب النهايات، أصبح هذا يقيناً مستقراً في نفوس الناس ومعارفهم.

ورغم شيوع هذا اليقين، فإن بعض حالات الإصابة بمرض السرطان قد شُفيت، أو تعافت وعاش أصحابها سنوات ... بل أن البعض منهم عاشوا بالعلاج حياة شبه عادية، أو قريبة مما يعيشها كثيرين من المصابين بأمراض خطيرة أخرى.

ولكن ورغم هذا وذاك، فإن اليقين المستقر في نفوس الناس ومعارفهم، بأن الإصابة بمرض السرطان سبباً إلى النهاية .. سواء بعدت .. أو قربت، جعل الإنسان الذي يُصاب به يمر بتحولات، في

---

* هو المتنيح القمص بيشوى كامل (١٩٣١ - ١٩٧٩) الإسكندرية.

حالته النفسية والروحية، متميزة ومحيرة، فرغم تباينها إلا أنها تنتهي إلى الأفضل! ورغم أن المصاب يصير إلى تصدع وإنهيار، إلا أنه ينتهي إلى تماسك وقوة، وفي البداية يكون كمن سقط في قاع سحيق، ولكن ينتهي إلى ارتفاع، ومن حالة إلتماس المعونة والمساندة إلى .. أن يصير مصدر قوة وتعزية لمن حوله!

هذا مما جعل الحالة النفسية والروحية لمريض السرطان - بين جميع المرضى - حالة خاصة جداً، سواء من جهة تحولاتها أو مواصفاتها.

وهذه الحالة لا تكون خافية، بل يُلاحظها ويلمسها بكل وضوح الذين يحيطون بالمريض أو يتعاملون معه، سواء في بعض مظاهرها أو مما هو أعمق من الظاهر ...

وذلك بدءً من حالته الهابطة إلى قاع الظلمة ... إلى حالته المرتفعة ... والتي تزداد ارتفاعاً وقوةً كلما تأكد انتصار السرطان واقتراب الرحيل. يبدو ذلك في وجهه المطمئن رغم ما أصابه، وابتسامته الهادئة رغم الألم، أو في السلام الذي يملأ نفسه رغم معرفته بما سوف يلاقيه.

ورغم حزن ... ودموع المحيطين بالمريض، من أهل وأصدقاء، إلا أنهم يشعرون بالتعزية، والمدهش لهم إن مصدر التعزية يكون المريض نفسه، بل أنه المسيح نفسه الذي أصبح حضوره قوياً ... ملموساً في حياة المريض، الذي صار يتطلع برؤيا واضحة إلى الفردوس.

ما أعجب الإنسان، وما أشد غموضه !!

إذا نظرنا إلى البداية وقد عرفنا كيف كانت، وتطلعنا إلى النهاية وأدركنا ما سوف تصير إليه حياته، لا نملك إلا أن نقول: ما أعجب الإنسان وما أشد غموضه!

ما حدث ... وما كان ... وما صار إليه ؟!! فمن صارخ يشكو .. إلى شاكر يبارك!! ... هل يكون بعدما عانى مرضه، وانسحق بألمه، واحتمل أوجاعه، وتقبل كل ما حل به من آثار ؟ قد أدرك كم يكون الإنسان ضعيفاً، وقدراته واهية ومحاولاته إلى هباء، إذا وقف وحيداً، بعيداً عن اللَّه، وغير ناظر إلى صليب المسيح، فتنقت نفسه، وتطهرت روحه من شوائب الجسد ورغباته، وليس غير الألم طريق إلى هذا!

فإنحاز إلى اللَّه في إرادته ..

واختار الصليب في مشاركته ..

وقَبِل بفرح أن يكون الفردوس مكاناً لراحته.

إذاً ما قاله الأب القديس بأن السرطان " مرض الفردوس " كان خبرة ملهمة وإحساس صادق .. وسابق!

ما أطيبك يا اللَّه، وما أكثر مراحمك.

مع المرض تعطي للنفس نقاءً،

ومع الألم تعطي نصرة ..

إنك يا اللَّه، تجرح وتعصب.

شكراً لك يارب:

لأنك في عمق التجربة،

تنير بصائرنا ..

فنرى ما لا يُرى ..

ونثق فيما يُرجى ..

❖ ❖ ❖

ولكن ... لك أن تعرف ..

إن ما سوف تقرأه في هذه الصفحات، هو خبرة خاصة نتيجة لما عايشت ولمست، لمدة تزيد قليلاً عن العام، أثناء ملازمتي لزوجتي الدكتورة سوزان كامل، منذ إصابتها بمرض السرطان وحتى انتقالها إلى الفردوس.

وسوف أتحدث هنا عن ثلاث تحولات للحالة النفسية والروحية لمريض السرطان. وحديثي قائم على رؤية خاصة، أساسها الملاحظة والإحساس الشخصي، بما ينطوي عليه من حب وتعاطف ومعرفة لشخص المريض، وفي هذا اعتمدت على ما أحتفظتُ به في ذاكرتي، وما كنت قد سجلته في أوراقي الخاصة، بقدر ما استطاع العقل أن يعي ويحلل ... وبقدر ما استطاعت الحواس أن تحيط وتتعمق ...

فهذه الصفحات بكل ما تحمل، تعبيراً عن خبرة خاصة، مع إنسان خاص، قد تشترك في كثير أو قليل مع خبرات أخرى، لحالات مماثلة، وقد تختلف عنها سواءً لأسباب ذاتية أو موضوعية.

وفي جميع الأحوال لابد أن يعرف القارئ، أن هذه التحولات التي سوف أتحدث عنها قد مرت بشخص له من الإيمان القوي باللّه والثقة

العميقة به والخبرة الروحية الغنية، ما ساعده في عبور تحولات هذه التجربة الأليمة في كل مراحلها. وذلك منذ أن أحاطت بـه الظلمـة، مروراً بالصراخ والتضرع أن يخلصه الله من هذه المحنة، إلـى أن صار في دائرة حضور الله ونوره.

عرضنا ذلك دون إغفال للضعف البشري، وبلا نسيان بأن لكـل قاعدة استثناء.

وأحب أن أنبه إلي أن تقسيم التحولات إلى ثلاث فهو من عندي، كما أن كل تحول لا يحده زمن، فليس له بداية تضبطه ولا نهاية يقف عندها. فهذه التحولات بقدر ما هى متغيرة بقدر ما هى متداخلة، فهى أشبه بألوان الطيف. أما من حيث النهاية، وذلك حسب خبرتنا التـي نعرضها، فهى أقرب شبهاً بنور الصبح الذي ينبثق من بـين طيـات الظلمه الكثيفة.

كما أحب أن أشير بأن التحول الأول (أحاطـت بـي ظلمـة) والتحول الثاني (اخرِج من الحبس نفسي) بكل أطيافهما، لهما صفة العمومية التي تشهد لها ملاحظتنا لكثير من الحالات التي التقيت بها، أو التي سمعت عنها ممن عاينوها. أمـا التحـول الثالـث (فكـان نور ...) فهو له صفة الخصوصية بشخص خبرتـي التـي أكتـب عنها .. وإن كان هذا لا يمنع أن تتلاقي معها حالات أخرى اتفق لها أن تشابهت في مقومات الشخصية .. وفي مكونها الثقـافي والـديني وظروفها العامة.

كما أنني أردت أن أتعرض – لما لذلك من أهمية – لبعض ما يجب مراعاته في مثل هذه الحالات من جهة الذين يتعاملون معها سواء :

- الأقارب والأصدقاء وخدام الرعاية الروحية (الزائرون).
- الأطباء المعالجون أو غيرهم.

لعل ما سوف أقوله، من واقع خبرتي، يساعد هؤلاء من إمكانية أن يعينوا المريض في محنته، ومساعدته هو وعائلته، ليكونوا في حالة نفسية وروحية ترفعهم فوق التجربة التي أصابتهم.

❖ ❖ ❖

(١) " أحاطت بي ظلمة ...

وهنا نبدأ بعرض ملامح أول التحولات، كما بدت لنا.

بعد أن أظهرت نتائج الفحوصات وتشخيص الأطباء، بأن المرض سرطان Cancer ، وعرف المريض بأنه مصاباً بالسرطان وليس مرض آخر. في ذلك الوقت يكون المريض أشبه بمن سقط فوق رأسه حجر ثقيل، فأصابه دوار أفقده توازنه، أو كمن انهارت الأرض من تحت قدميه فسقط إلى هاوية سحيقة فاقداً الوعي عاجزاً عن الحركة، ويتنبه فإذا به في حالة من الاضطراب، والإرتباك الشديد، أحياناً يبدو غير مصدق لِمَّا حدث، وأحياناً أخرى ذاهلاً عمن حوله، ودائماً في

بكاء .. يلقي بعبارات متسائلة .. أو معاتبة، لا يعني إلى من .. أو إلى أين يوجهها، حيث أصبح كل ما حوله: دموع .. وألم .. وعجز.

وينهار عالمه، وقد بدأ الذعر يطارد نفسه، وبدأ قلبه يخفق مضطرباً، معبراً عن قلق داخلي عميق؛

- لماذا أنا ؟! هل هذا معقول ؟! ماذا أستطيع أن أفعل ؟!

- أين أنت يارب ؟! لماذا أنا بالذات ؟! سرطان يارب !!

ويتحدث إلى اللَّه، كأن اللَّه ليس لديه علم بما حدث له .. وينظر إلى من حوله يستنجد بهم، فيكون كمن يغرق ولا منقذ.

وتمر الساعات ثقيلة، والأيام كأنها عالقة بجبل، حتى يتقرر ما يجب أن يخضع له من علاج، والمريض يعيش في حالة ما بين الوعي والغفلة، يسأل فلا جديد، ويأمل ولا شيء يتغير، وينتظر كمن يحلم بأن ينجو من حكم بالموت ..

وينام .. ويصحو، وهو يحلم ويتمنى، بأن يكون ما هو فيه مجرد كابوس ويستيقظ منه فيجد حياته وقد عادت كما كانت قبل أن يظهر هذ السرطان اللعين، فهو مع كل نَفس يتردد فيه يرفض أن يصدق أن ما حدث قد حدث فعلاً وحقاً.

وحتى وإن بدي لمن حوله إنه قَبِل بذلك السرطان، ولكن كيف له أن يقبل بأن الزمن يتوقف أو أن كل شيء يسقط وينهار!

- يارب .. إفعل شيئاً .. أرجوك!

ويتلمس بكل لهفة تكذيب نتائج الفحوصات، أو خطأ تشخيص الأطباء، ويتوجه إلى الذين من حوله راجياً أن يسمع كلمة .. أو نظرة توحي بالشك فيما عَرف! فيستمع بإنصات إلى كل عبارة .. أو حكاية .. يقولها أحد تشير إلى مثل هذه الرغبة، خاصة وفي مثل هذه الظروف تكثر الروايات الواهمة، والحكايات الخادعة، التي ليس لها أساس من علم أو دين. وتتعلق نفس المريض بين الفحوصات والتشخيصات، والروايات والحكايات متأرجحاً بين الأمل واليأس، بين الرجاء والخيبة، بين الوهم والحقيقة، بين الدعوات والأمنيات، وهو في كل ذلك منطرحاً وسط عالمه المنهار مصدقاً أحياناً، متشككاً أحياناً أخرى، حزيناً باكياً في كل حال، يصرخ بالدعاء .. طالباً الصلاة من كل أحد .. الدعاء .. الصلاة، ويتسائل مع نفسه وهو في حيرة .. بماذا أدعو، وماذا أطلب في الصلاة ؟!!

- هل يطلب ويدعو من أجل أن يستيقظ من هذا الكابوس ؟!! ، أم يطلب ويدعو من أجل عدم صحة الفحوصات والخطأ في التشخيص، أم يطلب ويدعو من أجل الشفاء، والشفاء مما .. السرطان!!

ها هو وقد بدأ يتنبه بتردد، ويقبل بعد رفض، ويستوعب في منطقة قليلة العمق من وعيه أن هناك حقيقة واقعة؛ إنه مريض .. وإنه مريض بمرض السرطان، ذلك المرض اللعين، الخبيث، القاتل، لذلك ها هو يتوجه إلى اللّٰه ويصرخ بالدعاء .. ويطلب في الصلاة من أجل الشفاء من السرطان. وإن كان حتى ذلك الوقت، لا زالت في

داخله منطقة ترفض وتتردد، وكأنه يخشى أن يُصدّق تماماً أن يكون هذا حقيقياً، ولكن سريعاً ما ينتقل إلى حالة القبول بأنه ربما يكون حقيقةً مصاباً بالسرطان .. ولكن نوعاً ما بسيطاً، أو بدرجة يمكن شفاؤها سريعاً، خاصة وأنه حتى الآن يشعر بأن الأعراض التي يشكو منها محتملة وتشبه أعراض أمراض كثيرة ليس بالضرورة خطيرة.

ويتألم في نفسه وينطوي على حزنه، وهو يغادر عن وعي منطقة الأمل .. والرجاء في أن لا شيء هناك؛ ليس إلا كابوساً .. ليس إلا خطأ .. ليس إلا شيئاً بسيطاً سريعاً ما يشفى منه، لينتقل إلى القبول بواقع مرير وإن كان لازال يأمل في التغلب عليه.

وفي جميع الأحوال .. يعيش وهو يشعر بأنه قد فقد الإحساس بالأمن والطمأنينة، فتزداد نفسه اضطراباً، ويصبح القلق رفيقه ليل نهار، وقد بدأ يتسائل عن احتمالات المستقبل، وما سوف تنتهي إليه حالته، وإلى جانب ذلك تشغله أمور كثيرة أخرى خاصة بظروفه، ومسئولياته .. وأسرته وإمكانيات العلاج ونجاحه .. أحياناً يفصح عنها وأحياناً يتكتمها في نفسه، فيواصل الدعاء .. والصلاة، وخاصة وأنه يكون في هذه الفترة قد بدأ يخضع لما تقرر له من علاج لمرض السرطان، كيماوي .. إشعاعي .. هرموني ... الخ.

ومع بداية العلاج حسب البروتوكول الذي تقرر له، يهدأ جانب في نفس المريض، مما قد يوحي بتحسن حالته المرضية، وإن كانت أعماقه لا تزال مضطربة، ونفسه حزينة، خاصة وهو لابد وقد قابل،

في أماكن العلاج وعيادات الأطباء التي يتردد عليها، حـالات مثـل حالته، متقدمة أو متأخرة عليها رغم خضوعها للعلاج من فترة طويلة أو قصيرة، كما أنه شاهد الآثار التي سببها العلاج، لبعض الحـالات، على الجسم، وقد يكون قد لاحظ الآثار التي بدأ فعلاً يعاني منها هـو نفسه. كما أن الأطباء المعالجون في هذه المرحلة يتكلمون معه بأكثر وضوحاً عن حالته واحتمالات المضاعفات ونسـبة نجـاح العـلاج واحتمال تغيره مستقبلاً، فتتضح له أبعاد حالته وتفاصـيلها فيتعـرف أكثر على هذا السرطان الذي أصابه.

ومن الناحية النفسية يبدأ في الإنسحاب داخل نفسه، مـع إتسـاع مساحة أحزانه الداخلية وعلى مستوى الظاهر تقـل دموعـه ويبـذل المحاولات لكي يبدو متقبلاً .. بل قوياً على غير حقيقته، لأن خـلاف ذلك يمس روحانيته وقوة إيمانه أمام الآخرين. فيظهر ثقة في رحمـة اللّه وقدرته على إنجاح العلاج، وإن كان هو في الواقع منهاراً أمـام واقعه، مشغولاً بما تحمله له الأيام، مثقل بنفسه التي تموج بتساؤلات لا إجابة لها مع الخوف .. والحزن، وإن كان لازال متمسكاً بالأمـل في الشفاء، والرجاء في الإنقاذ وهو يردد :

- لماذا أنا يارب ؟!

- لماذا سمحت بهذا، وأنت تعرف ظروفي ..؟!!

- ليس من أجلي بل من أجل البيت والأولاد ومن أجـل (....)

وتختنق الكلمات، وتتساقط الدموع، وقد ازداد وعياً ومعرفة بأن حياته

قد أُصيبت بكارثة قل من ينجو منها، وإن كان يرجو النجـاة بحياتـه سواء بالعلاج أو بمعجزة ...

" لأنك طرحتني في العمق في قلب البحار،
فأحاط بي نهر.
جازت فوقي جميع تياراتك ولججك.
فقلت: قد طُردت من أمام عينيك.
ولكنني أعود أنظر إلى هيكل قدسك .. " *

وتضيق الدائرة حوله، ويحاصره الألم والقلق، وتكثـر الأدويـة وتتنوع وتتغير درجاتها، وتختلف الفحوصات وتتباين أنواعها، ويقـل الأمل في شفاء سريع ويزداد المريض تعرفاً علـى شراسـة العـدو وخبثه، ويزداد أيضاً إدراكاً لعمق الهوة التي سقط فيها، ورغـم هـذا يزداد تشبساً بالأمل في النجاة، فيقبل بتغيـر أنظمـة العـلاج مهمـا كانت .. ومهما طالت، ويقبل بآثارها الخفية والظاهرة علـى جسـده وعلى نفسه، ويقبل .. ويقبل من أجل الشفاء متى حلَّ، لأنه لا يريد أن يتخلى عن الأمل بأنه سوف ينجو بحياته ..

" قد اكتنفتني مياه إلى النَّفس.
أحاط بي غمرٌ. التفَّ عُشب البحر برأسي.

---

* من الإصحاح الثاني من سفر يونان.

نزلتُ إلى أسافل الجبال.
مغاليقُ الأرض عليَّ إلى الأبد.
ثم أصعدتَ من الوهدة حياتي أيها الرب إلهي .. "❖

ويكون الأمل في هذه المرحلة على المستوى النفسي في نجاح فاعلية العلاج في القضاء على المرض مهما طال الزمن، وعلى المستوى الروحي في قبول واستجابة الدعاء والصلاة فتحدث المعجزة ويتم الشفاء.

الشفاء مهما طال الزمن، والحياة مهما كان الثمن.

....

ويدعم الإتجاه الأول - الشفاء بالعلاج - كلمات الأطباء المشجعة، خاصة إذا ظهرت أية تغيرات في بعض الفحوصات توحي بالتحسن، فهي عادة تفسر بأن هناك استجابة للعلاج، مما يزيد من الأمل في الشفاء به، وأيضاً الأطباء في هذه الفترة يطالبون المريض بالصبر، كما يشيرون في أحاديثهم أنه لازال أمامنا في حالة فشل هذا العلاج، علاجات أقوى لم نضطر لها حتى الآن، لأن العلاج الحالي كافٍ لتحقيق الشفاء، لذلك كله يشعر المريض أنه في الجانب القوي ضد هذا المرض اللعين .. وإن كان عليه بالصبر.

❖ من الإصحاح الثاني من سفر يونان.

ويغذي الإتجاه الثاني - الشفاء بالمعجزة - فيض قصص المعجزات المروية والمكتوبة التي ينقلها له الزائرون، والتي تتحدث عن الشفاء الذي حدث لكثير من حالات مثل حالة مريضنا بالإضافة إلى ما يمكن أن نطلق عليه " مواد الشفاء المعجزية " والتي يقدمونها له مؤكدين قوة فاعليتها، مما يزيد من الرغبة .. والترقب لحدوث معجزة، تنهي كل مرض وكل ألم، وتذهب بالحزن والخوف.

والمريض ينتظر وهو يدعو أن يأتي الشفاء وتعود حياته إلى الأمن والاستقرار اللذين فقدهما بعد أن عرف السرطان طريقه إليه ..

" لكلماتي أصغ يا رب.

تأمَّل صُراخي.

استمع لصوت دُعائي ..

يا ملكي وإلهي،

لأني إليك أُصلِّي ..

... أوجِّهُ صلاتي نحوك وأنتظرُ .. " *

وإن كان في أعماق نفسه يملؤه احساس مُرٌّ بأن حياته قد تبعثرت وأن الانتظار قد يطول كثيراً، وأن الألم قد يبقى حتى النهاية.

وفي حزن وكآبة نفس يطلب؛

يا رب " إن أمكن فلتعبر عنِّي هذه الكأس .. ".

---

* من المزمور الخامس.

ويبدي المريض شيئاً من الرضى، لِمَّا يلمسه من إهتمام به من الذين حوله، وأيضاً بالعناية والرعاية التي يُقدمها له الأهل والمقربين، وأحياناً يُسرّ بكثرة الزائرين له والسائلين عنه من أصدقاء وزملاء حتى ولو كانوا عابرين.

ومع توالي الأيام .. يدرك أن الشفاء بعيد .. ويعيش أوقاته متأرجحاً .. بين أمل .. ويأس، بين رجاء وخيبه، بين قبول ورفض. حياته ليس لها استقرار فهو دائماً في منطقة البينْ .. بين، أحياناً يندمج مع من حوله وأحياناً ينعزل وينطوي على نفسه، وأحياناً يدعو اللّٰه أن يجعل في العلاج الشفاء وأحياناً يطلب بسرعة المعجزة، وهكذا بين التقدم والارتداد، بين إحساس ونقيضه، منفرداً بذاته متفحصاً من حوله، بين العجلة والانتظار.

وتستمر هذه الحالة فترة من الزمن قد تطول .. وقد تقصر والمريض يعاني من وعيه بأن لا العلاج هزم المرض ولا المعجزة تحققت ..

ويصرخ من أعماق نفسه؛

" يا رب، لماذا تقف بعيداً ؟

لماذا تختفي في أزمنة الضيق ؟ " ❖

❖ ❖ ❖

❖ من المزمور العاشر.

ويكون صباح .. ويكون مساء، وتتوالى الأيام وإذ بها أسابيع أو شهور وتبدأ أطياف مرحلة جديدة في رحلة تحولات مريضنا النفسية والروحية. وهذه المرحلة سوف يكون لها سماتها وتميزها عما سبقها من حالة المريض، وإن كان في بعض الأحيان يرتد إلى بعض مما كان عليه، ولكن سريعاً ما يعود ويتقدم إلى ما سوف يعبر إليه ..

❖ ❖ ❖

وهنا أود لو أننا استرحنا قليلاً من متابعة المسيرة النفسية والروحية لمريضنا، لنتركه ونتوجه إلى آخرين هم الزائرين من أهل وأصدقاء وخدام الكنيسة .. لما لهم من دور هام وأثر كبير في نفسية المريض وحالته الروحية، سواء كان هذا الأثر إيجابياً أو سلبياً في بعض الأحيان.

لذلك من واقع التجربة التي نعرضها أتوجه ببعض توصيات لو أخذ بها زائرو المريض على اختلافهم، ربما يكونوا من أسباب تعزيته، وراحته، وسلوته، وعلى وجه العموم مساندته فيما هو فيه، ونوجز هذه التوصيات في العبارات الآتية:

- عند زيارتك **كن معتدلاً** في جميع تصرفاتك: إظهار عواطفك، إبداء ملاحظاتك، عدد المرافقين لك، وقت الزيارة، عبارات المجاملة، والتي يجب مراعاة عدم المبالغة فيها.

- كن رقيقاً ودوداً **دون تهوين أو تهويل** من حالته، خاصة في توقعات الشفاء أو العلاج.
- لا تتكلم مع أحد الجالسين همساً، ولا تقوم بإشارات أو حركات توحي إنك تريد أن تُعبِّر عن شيء لا يصل إلى فهم المريض، حتى ولو كان المقصود بعيداً عن موضوع مرضه، لأنك سوف تثير شكه ووسوسته وخوفه، **وتزيد من متاعبه**.
- **كن متفائلاً دون وعود، وكن بشوشاً بوقار، وكن ضاحكاً بدون تهريج** حتى لا تكون سبباً في جرح مشاعره أو مشاعر الذين حوله. حتى وإن كنت تظن أن هذا يرفه عنه.
- لا تجلس صامتاً .. حزيناً .. مكتئباً، ظناً منك أن هذا أكثر لياقة بالموقف، لأن المريض وأهله لديهم كفايتهم من كل هذا، بل تصرف حسب الموقف، ويكفي أن تظهر تأثرك وألمك من أجله مع إعلان ثقتك بأن اللَّه سوف يتدخل، وشارك في الحديث خاصة إذا كان له صفة التعزية أو التسلية، **واستمع بإنصات عندما يتكلم المريض**.
- لا تروي القصص والحكايات والحوادث والأخبار، التي يكون موضوعها مأساوياً وقاسياً على مشاعر المريض وأهله، ربما تظن في ذلك إنك تظهر له أن " بلوته أهون من بلوة غيره ". وأتذكر في هذا المجال أن صديقاً جاء لزيارتنا أثناء مرض زوجتي ومنذ أن جلس حتى غادر وهو يروي حوادث وأخبار في غاية القسوة حدثت لشباب وأطفال، لنساء ورجال، يزعم أنه

يعرفهم، حتى خيم جو شديد الكآبة على كل الجالسين بما فيهم زوجتي، حتى إنها قالت بعد انصرافه " ياريت يبقى يطمئن علينا بالتليفون، أو يكتفي بالصلاة لنا في منزله .. ".

- إن كان في إمكانك، **فاعرض تقديم أية خدمة** يمكن أن تقدمها - وحسب ظروف كل مريض - هناك الكثير من الأمور التي تحتاج إلى من يقوم بها.

- لا تردد كلمات أو اقتباسات دون أن تدرك أثرها على مثل حالة مريضنا، حتى ولو كان ما تقوله عبارة من الكتاب المقدس. فعلى سبيل المثال لا تقل له مثلاً : "**كل ما يُعمل يُعمل للخير**" لأنه كإنسان كيف يتقبل أن يكون في إصابته بالسرطان أي خير، بل أي خير تراه أنت في أن يصاب هذا الإنسان بالسرطان. العبارة رائعة بلا شك ولكن ليس هذا الظرف المناسب لقولها. فإذا تذرعت بأن اللَّه هو الذي يقول ذلك، إذاً فدع اللَّه يرتب الوقت المناسب والحالة الروحية المناسبة لإعلانها، أما أنت فكن حكيماً وتمسك بقول سليمان الحكيم : " **الكلام الحسن .. حلو للنفس ..** ".

- لا تنكر على المريض إظهار ضيقه، وألمه، أو عتابه للَّه، حتى لا تكون كمن ينكر عليه إنسانيته وحقه في الألم، والرفض، والضعف. وكذلك لا تجادله عقلياً وهو في حالة إنفعالية وإلا سقطت أنت في اللامعقول.

- قدِّم اللَّه المعزي .. الشافي، في صورة مبهجة، مفرحة. واجعل تأملاتك ووعظك في عبارات قصيرة، بسيطة، واضحة، فيها

وعود اللّه بالحب، والمساندة، والمشاركة في الألم. **وتحدث عن الألم كطريق للنصرة**، وذلك مثال آلام المسيح على الصليب، **وأن اللّه يستخدم الألم كوسيلة لتنقية النفس وتطهير الروح**. وعن مشاركة المسيح لنا في الألم.

- وإذا وجدت لزيارتك الأثر الطيب الجميل، فكررها على فترات، فالمريض وأهله في حاجة إلى الزيارة التي لها هذا الأثر، سواء كان هذا الأثر روحياً، أو تسلية، أو خدمات تُقدَّم. وبالخبرة والحكمة تستطيع أن **تُقدِّر الوقت المناسب للزيارة**، والزمن المقبول لها، ومتى تتكلم ومتى تصمت وماذا تُرنِّم، ومتى تعظ، ومتى تقرأ في الكتاب المقدس، ومتى تُصلِّي. لأن اللّه مع الصدق يعطي حكمة، ومع الحب يعطي مواهب.
- **أخيراً** إذا كانت لك موهبة في الترنيم، فرنم إذا وجدت رغبة عند المريض في ذلك، لأن هذا في كثير من الأحوال يكون سبب مسرّة وتعزية له خاصة لو كانت حالته تسمح بالمشاركة.

نعم، زيارة المريض وصيّة إنجيلية، **ولكن علينا بالحكمة والمحبة في ممارستها.**

✥ ✥ ✥

(٢) " أَخْرِجْ مِنَ الحَبْسِ نَفْسِي "

... إن مريضنا في هذه المرحلة يتجه نحو معايشة تحول جديد في إطار تحولات حالته التي سبق وأشرنا إليها، بأطيافها المتداخلة، وتقدمها وتراجعها. ففي البداية يكون أهم سمات هذه المرحلة، ضبابية الرؤية، فليس هناك شيء واضح أو محدد، فهو كمن يسير في منطقة ضباب كثيف فلا هو قادر على الرؤية، ولا هو قادر على الخروج من بين الضباب. تحركه رغبته في الشفاء في أسرع وقت، سواء كان هذا الشفاء بأدوية العلاج أو بحدوث معجزة، محبوساً داخل حدود رغبته هذه، دائم الحركة والدوران فيها، باحثاً عن بارقة أمل أو طاقة ضوء أو أية وسيلة تُخرجه مما حُبس فيه من مرض وخوف، وأمل في الشفاء.

وسوف نلاحظ في هذا التحول أثر العناصر الخارجية على المريض من الناحية النفسية والروحية والدور الذي تلعبه هذه العناصر في سلوكياته وأفكاره.

فبعد مرور فترة من الزمن على إصابته بالمرض، يكون قد انتشر خبر مرضه في دائرة أوسع بين الأقرباء والأصدقاء والمعارف، فيكثر الزائرون والمترددون عليه، بما يحملونه له من أمنيات بالشفاء، وكذلك الحكايات والقصص التي تروى عن حالات مثل حالته شُفيت سواء بالعلاج أو بالمعجزات، بالإضافة إلى ما يرد له مع كثير من هؤلاء الزائرين من مواد الشفاء المعجزية: زيت مقدس، مياه مباركة،

أشياء منسوب لها قدرات شفاء لإرتباطها بقديس أو مكان له بركاتـــه، بل أحياناً ينقل إليه أنبوب يحتوي على جزء من رفات قديس، هذا إذا كان المريض أو أسرته لهم حظوة عند من يملكون هذا، هذا بالإضافة إلى العديد من الكتب التي تحتوي على الكثير من معجزات الشفاء ... وأيضاً الكثير من صور القديسين والأيقونات ... ألخ. كما ينقـل لـه بعض الزائرين أن بعض الآباء المشهود لهم بالقداسـة يـدعون لـه ويرفعون الصلوات من أجله، وبعضهم يقيمون باسمه .. القداسات .. وهذه الأخبار مصحوبة عادة بالمزيد من تلك المواد المعجزية والمزيد من القصص والحكايات التي تروى عن الحالات التي شُفيت بمعجزة لهذا السبب أو ذاك.

ويمتلئ المريض بالأمل في الشفاء العاجل بمعجـزة مثـل تلـك المعجزات، ولماذا لا ؟! وهو قد توافرت له كل عناصـر المعجـزة، تؤكدها الحكايات والروايات عن المعجزات التي حدثت وتحدث كـل يوم سواء الموجودة في الكتب أو تلك التي يرويها الزائرون، ويصبح المريض وقد صار يتوقع حدوث المعجزة من يوم إلى يوم، بل مـن ساعة إلى ساعة، بل لا نبالغ إن قلنا أنه أحياناً يتوقعها بـين لحظـة وأخرى.

ويترتب على هذه الحالة، التي قد سيطرت عليه تمامـاً، نفسـياً وروحياً، بعض السلوكيات التي يكون لها الأثر السلبي علـى حالتـه المرضية، بالإضافة إلى التذبذب في حالته النفسية والروحية، والتـي أحياناً تسبب له من المعاناه ما يفوق معاناته من ألم المرض.

وقبل أن أستطرد في عرض بعض النماذج من السلوكيات التي يُدفع إليها المريض والتي يكون لها الأثر السلبي على حالته وكذلك صور التذبذب النفسي والروحي - التي أشرنا إليها - نتيجة ما امتلأت به نفسه من توقع لحدوث المعجزة الموعودة والمنتظرة بإلحاح. أحب أن أسجل إنني لست رافضاً لطلب المساندة والمؤازرة من القديسين بطلب صلواتهم هم أو غيرهم من المؤمنين، ولكني أرفض تماماً سوء استخدام هذه الأمور بالصورة التي أصبحت شائعة، لِمَّا لذلك من آثار ضارة على المريض. أردت أن أسجل هذه الملاحظة حتى لا تذهب أفكار البعض ظناً وخطأ بخلاف ذلك. كما أنني أؤكد أن ما يحدث كما أشرنا إليه ليس من تعاليم كنيستنا الأرثوذكسية وإن بدى للبعض غير ذلك نتيجة الخلط بين ما يحدث وموضوع الشفاعة أو سر مسحة المرضى أو الصلاة من أجل المريض بالمفهوم الإنجيلي.

ونعود إلى مريضنا، وها هو قد بات يتوقع المعجزة من ساعة إلى أخرى، وامتلأت نفسه بانتظار الشفاء بين اللحظة وأخرى، وفي نفس الوقت وفي منطقة أخرى من نفسه يبدأ يشعر بالفتور تجاه العلاج الدوائي، ويبدو غير متحمس له، ثم يعلن أنه غير واثق أن الدواء سيكون هو سبب الشفاء .. ظناً في نفسه أنه إنما يعلن إيمانه وثقته بأن الشفاء لن يتم إلا بحدوث المعجزة، مما يؤكد إستحقاقه لها ويعجل بحدوثها له. وينتظر ..

هذا إلى جانب أنه في أغلب الأوقات يتوه في وسط هذا الحشد الهائل من الوسائط المادية والمرويات عن المعجزات التي تحدث كل يوم بل كل ساعة وفي كل مكان مدعومة بشهادات أهل الثقة من كتّاب أو رواة. أقول يتوه بين هذا الحشد فينسى صلاة الإيمان التي تشفي المريض، ويكتفي بطلب المعجزة ومكتفياً بهذه الوسائط ومن تنسب إليهم من القديسين!!

ويزداد المريض فتوراً بل رفضاً للدواء في الوقت الذي يزداد تشبساً وإلحاحاً في طلب المعجزة، خاصة إذا كان نظام العلاج قد تغير إلى ما هو أقوى، ولم تتقدم حالته الصحية، أو أن الآثار الجانبية للعلاج أخذت في الظهور على وجهه وشعره وباقي أعضاء جسده .. وأخذت آلامه تزداد ومعاناته تتواصل .. فيزداد الأمل في حدوث المعجزة التي تذهب بالمرض وكل آثاره .. وأمام إلحاح الأطباء والمحيطين به بالالتزام بالتعليمات الطبية ومحاولة إعادة الثقة له في العلاج، يكون منطق المريض:

- إحنا جرّبنا الأدوية وكلام الأطباء، نشوف ربنا ماذا سوف يعمل، أو
- أنا زهقت من الأدوية، هو يعني العلاج عمل إيه غير البهدلة وزيادة الألم، أنا محتاج لمعجزة تشفيني وتريحني مما أنا فيه.

ويزداد إصراراً في طلب المعجزة، ويزداد عتاباً على القديسين الذين تنسب لهم مثل هذه المعجزات والتي ينتظر منهم المعجزة التي تشفيه هو.

- يا أبونا (....) إنت شفيت حالات كثيرة أصعب من حالتي. إنت ساكت ليه!!

ويزداد اهتمامه بدهن نفسه بالزيت المقدس أكثر من اهتمامه بتعاطي الأدوية في مواعيدها، أو الشرب من المياة المباركة وما يُخلط بها - حسب الأحوال - أكثر من اهتمامه بتناول الطعام، ويهتم بالاحتفاظ بكل ما يصله من مواد الشفاء المعجزية بالقرب منه أو داخل ملابسه أكثر من اهتمامه بمراعاة تعليمات الأطباء، ومع الأيام تزداد ثقته في أي شيء مرتبط بتلك المواد التي سوف تحقق له المعجزة المنشودة عن طريقها، والتي بعدها سوف يستريح من كل متاعبه، ويصير مترقباً للمعجزة المنتظرة بين لحظة وأخرى. ولماذا لا وقد حدثت لكثيرين بواسطة نفس القديسين الذين يطلبهم ويتمسح ويتبارك بآثارهم التي أصبحت في كل مكان من حوله.

ويكثر من محاولة عدم ذهابه إلى عيادات الأطباء سواء للعلاج أو المتابعة بحجة إنه مُتعب وغير قادر على الذهاب، في حين يُقبل بحماس على الذهاب إلى زيارة الأديرة والكنائس حتى البعيدة والتي تستلزم الجهد، رغم ما يعانيه في الرحلة إليها والعودة منها .. ولكن كل شيء يهون من أجل المعجزة المنتظرة.

والمعجزة لم تحدث، وحالته المرضية تزداد تدهوراً، ولكنه هو أيضاً يزداد تشبساً بأن شفاءه سوف يتم بمعجزة، ويعاتب باكياً:

- معجزات كثيرة حدثت وعندي أنا وخلصِت. ليه يا أبونـــا (...) أسرع يا أبونا (...) وينام ويصحو منتظراً المعجزة. فإذا نـــام يتوقع أن تحدث أثناء نومه فيستيقظ وقد شفي من مرضـــه، وإذا صلى يتوقع بأن المعجزة سوف تحدث أثناء الصلاة ويشفى قبــل أن تنتهي صلاته .. وينتظر وينتظر .. والمعجزة لا تحـــدث .. فيزداد عتابه .. ويزداد بكاؤه ويتألم من أجل نفسه:

- هو الأنبا (...) وأبونا (...) وأبونا (...) تخلو عني ليه ؟!

ويستطرد مريضنا قائلاً : الظاهر إن ربنا نساني !! .. وغالباً ما يجهش بالبكاء.

" إلى متى يا رب تنسـاني
إلى الإنقضاء ؟
إلى متى تصرف وجهك عني ؟
إلى متى أردد هـذه المشـورات في نفسي
وهـذه الأوجـاع في قلبي كـل يـوم ؟
انظر واستجب لي يا ربي وإلهي .. " *

❖ ❖ ❖

---

* من مزمور ١٣ .

وبعد فترة يحدث تغير في سلوكه بالكاد يلاحظ في البداية، يعـود إلى إهتمامه بالأدوية، وأوقات تعاطيها ويبدي إهتماماً بـالتردد علـى عيادات الأطباء للعلاج أو المتابعة، ويعود يتحمس لإنتظـار نتـائج الفحوصات، هذا ولا يزال في انتظاره للمعجزة التي تحقق له الشـفاء الفوري، وإن بدى عليه شيئاً من الإحباط ..

" عند دُعائي استجب لي يا إله برِّي.
في الضيق رحَّبتَ لي.
تراءف عليَّ واسمع صلاتي .. " *

ويوم بعد يوم يُلاحظ عليه فتور حماسـه تجـاه مـواد الشـفاء المعجزية، مثلاً يأخذ الزيت ويضعه بجواره بعد أن كان يصر علـى المسح منه فوراً، ويتناول الماء ولا يشرب منه، ويقل إقبالـه علـى القراءة في كتب المعجزات، وإن بدأ يتحمس لطلب تناوله من الأسرار المقدسة بعد أن أعجزته حالته المرضية عن الذهاب إلـى الكنيسـة؛ ويبدو عليه الفرح والسرور بعد تناوله. وعادة ما يؤكد المريض على الآباء الكهنة أن يذكروه في صلواتهم وخاصة في القداسات، وأن يمد اللّه يده بالشفاء ويجعل في العلاج الفائدة ..

---

* من مزمور ٤ .

وعلى صورة غير متوقعة، يزداد إقباله علــى قــراءة الكتــاب المقدس، وخاصة سفر المزامير سواء بنفسه أو مستعيناً بقراءة غيره، ويواظب على ذلك بدقة وحماس .. ويبدو أثر تلــك القــراءات فــي صلاته وأحاديثه، بل وأحياناً يطلب القراءة من بعض الكتب الروحية العميقة سواء التي سبق له قرأتها، أو التي قد ذكرها أو أشاد بها أحد من الزائرين .. وعند قراءته يقف أمام بعــض الفقــرات، أو أحــد الفصول ويطلب إعادتها .. وبصفة عامة تزداد رغبته في الروحيات.

ويحدث إن تصادف وكان في زيارته أحد عُرف عنــه موهبــة الترنيم، يطلب منه أن يُرنِّم، وأحياناً يطلب ترنيمة معينة أو إعادتهــا، ويحاول، رغم التعب وقصر النفس نظراً لحالته المرضية، أن يشارك في الترنيم ولو بدندنة تكاد لا تُسمع، أو بحركة من اليد أو القدم تكــاد لا تلحظ.

وعندما يطلب أحد منه المشاركة في الصلاة، يصلِّي رغم ضعفه، ويطلب من أجل الآخرين ومن أجل أسرته ومن أجل الذين يخدمونــه ويساعدونه ويبدو في ذلك متأثراً لحد البكاء، ولا ينسِ أن يطلب مــن أجل الشفاء، لنفسه ولكل المرضى.

وتظهر لديه بصورة واضحه الرغبة في المشاركة فــي بعــض الأحاديث خاصة إذا كانت قريبة من خبرة خاصة به، أو تــدخل فــي دائرة معرفته، ويهتم جداً بسماع الأشخاص الذين يُعرف عنهم حُــبهم للروحيات، بل ويشارك في بعض التعليقات أو التأملات.

وبصفة عامة يشعر من حوله إنه قد قرر إنهاء حالة العزلة والانطواء، بل قرر توسيع دائرة إهتماماته ومشاركته فيما حوله، بعد أن كانت محصورة وضيقة على أشياء محددة.

وتظهر له إحتياجات لم تكن له ..

وتختفي إحتياجات لم يكن يستغني عنها ..

وتبدو له إهتمامات بأشياء لم تكن موجودة ..

وتختفي بالمقابل إهتمامات بأشياء أخرى كانت قريبة من نفسه.

بعضها يمكن ملاحظته، وبعضها يعلن هو عنها، وأكيد هناك ما يغيب عمن حوله، أو لا يمكن إدراكه بصورة دقيقة، ولكن المؤكد أن هناك تغيراً يحدث في حالته النفسية والروحية وإن كنا لا نستطيع في هذه المرحلة أن نؤكد إستقرار الإيجابيات تماماً ولا التخلص من السلبيات تماماً .. ولكن نستطيع أن نقول أن هناك تغيراً ظاهراً يحدث في حالته النفسية والروحية.

وفي أغلب الأحوال يبدو عليه وكأنه يصارع ليتخلص من قيود تقيد نفسه، أو أنه يسعي للتحرر من أربطة تحد من إنطلاق روحه، أو تسجن نفسه داخل هذه الأفكار والممارسات وها هو يصارع من أجل أن يتحرر وينطلق ..

" بصوتي إلى الرب أصرخ.
بصوتي إلى الرب أتضرع.
أسكب أمامه شكواي.
بضيقي قُدَّامه أخبرُ.

عند ما أعيت روحي فيَّ، وأنت عرفت مسلكي.
في الطريق التي أسلُكُ أخفوا لي فخاً ..
أخرج من الحبس نفسي،
لتحميد اسمك. "❖

وما ذكرنا من مظاهر هذه الرغبة وهذا الصراع إلا بعضه، وبعض ما استطعنا ملاحظته وإدراكه من حالته النفسية والروحية. وإن كانت أهم نتائج هذه المرحلة هو ظهور دور العقل في حسم بعض جوانب الصراع في صالح ما استقر في نفسه أنه الأفضل.

❖ ❖ ❖

ها قد بدأت نفسه تتجه إلى اللّه بصورة جديدة، وها هو يبدو في مسلكه، وأفكاره التي تُعبِّر عنها كلماته وكأن شيئاً في داخل نفسه قد تحرر، أو ثقل قد خف، ولا نبالغ إن قلنا أن هناك قيداً قد انكسر أو رباطاً قد إنحل.

فقد بدأ يطلب استجابة الصلاة التي ترفع من أجله.
ويرحب بالزيارة التي لها مسحة روحية.
ويُقبل على القراءة في الكتاب المقدس والكتب الروحية.
ويطلب كثيراً التناول من الأسرار المقدسة.

❖من مزمور ١٤٢ .

وقل لجوئه إلى ما دعوناه بمواد الشفاء المعجزية بكافة أنواعها .. وكف عن الحديث في طلب المعجزة الخاصة بـــه .. والمحـــددة المواصفات في الشكل والزمن، وقل اهتمامه بسماع أو قراءة القصص والحكايات التي تروي عن المعجزات، وانتهى عتابه للّه وللقديسـين لعدم نجدتهم له بمعجزة سريعة شافية كافية.

وهنا ندرك أن التغير الذي حدث، وقلنا عنه أنه نتيجة صراع قد أدى إلى كسر قيد أو حل رباط، قد حدث على وجه التحديد في إرادة المريض نفسه، لقد تحررت إرادته من كل ما لها من مطالب محـــددة، ورغبـــات معينة، وأمنيات مطلوبة بذاتها، وكاد كل هذا يختفي ليحل محله؛

طلب استجابة اللّه للطلبات التي يراها حقاً.

وإرادة اللّه فوق كل إرادة.

وكل الأمور تتم حسب مشيئة اللّه.

وفي كلمات قليلة القبول باللّه، وقد تسلّم الأمر كله ..

" أبانا الذي في السموات

ليتقدس اسمك

ليأت ملكوتك

لتكن مشيئتك

كما في السماء

كذلك على الأرض ... ".

❖ ❖ ❖

وهنا تبدأ أطياف التحول الأكثر دهشة، والأكثر عجباً، في عـالم غابت عنه الدهشة والعجب، فخسر الكثير من الغالي والثمين !!

فذاك الذي بدأ رافضاً عاتباً،

ثم لاجئاً .. متردداً،

ثم متجهاً إلى اللَّه ..

ثم مقترباً من اللَّه ..

ها هو يعبر الطريق الضيق، ليصير مع اللَّه،

ممهداً طريقاً إليه، وهو يردد:

لتكن لا إرادتي، بل إرادتك .. يا رب.

✥ ✥ ✥

ونسترح قليلاً قبل الدخول في التحول الثالث (... وكأن نـور)، والذي سبق وقلنا عنه أنه سوف يكون له خصوصية الخبرة الخاصة، مع شخص خاص؛ وليس له العمومية التي تـوافرت للتحـول الأول (أحاطت بي ظلمة)، والتحول الثاني (أخرج من الحبس نفسي).

وننتهز فترة الراحة هذه لنتوجه إلى الأطباء سواء منهم المعالجين أو الزائرين للمريض، لِمَّا لهم من دور هام جداً فـي مسـار الحالـة النفسية والروحية ليس للمريض فحسب بل للذين حولـه مـن أهـل وأصدقاء، وأيضاً مع تقديرنا الكبير لما عندهم من علم وخبرة في هذا المجال:

- لا تحاول أن تبدو غامضاً في عباراتك عند مكاشفة المريض بحالته، كُنْ واضحاً في الجزئية التي يستفسر عنها ويريد أن يعرفها، فتكون إجابتك وكأنها كل ما نعرفه حالياً.
- لا تبسط الأمور للدرجة التي يأمل فيها المريض بعدم وجود شيء ذي خطر، ولا تبالغ بحيث يظن أن النهاية قد تكون غداً. بل اجعله يدرك حقيقة حالته في لغة علمية بسيطة لا تنقصها اللمسة الإنسانية مع الإحساس بما هو فيه.
- لا تتكلم مع المريض مهما كانت الظروف بإستهانة، أو مزاح فيما يتصل بحالته خاصة إذا كان يشكو أو يسأل عن التوقعات المحتملة.
- تعاطف مع المريض بحرص، وعندما تتكلم عن إحتمالات النجاح، لا تغفل الإشارة برفق عن إحتمالات الفشل. وكرر دائماً معه أن كل حالة تختلف عن الأخرى تماماً، حتى لا يسبق الواقع إلى التوقع قياساً على الحالات الأخرى.
- لا تذكر الموت في أحاديثك، وعندما يتطرق له مباشرة ذكرّه بأن ليس هناك صلة مباشرة بين المرض والموت، إذ يوجد مرضى يعيشون .. كما يوجد أصحاء يموتون، لأن مريض السرطان يعيش كل لحظاته مع هاجس الموت. ويكاد يكون سؤاله الحقيقي لنفسه، ليس الشفاء من السرطان من عدمه؛ بل السؤال هل سيموت بسبب السرطان أم لا.

- عند تقديرك لقرب النهاية، اسمح له بكل ما يطلبه، خاصة عندما يسأل عما يأكل وعما يمتنع حتى ولو كانت لديك الدواعي الطبية لذلك.
- احتمل. وقدم كل ما تستطيع في إطار إنساني، وسوف تأخذ أجرك من ذاك الذي لا ينسِ تعب المحبة .. اللّه.

❖ ❖ ❖

(٣) " ... فكان نور "

وهذا تحول آخر ولنا أن نقول الأخير ..
ونعود لنذكِّر القارئ، أننا عندما نقول " تحول "، لا نعني أن لكل تحول حدوده الفاصلة ومدته الزمنية المحددة، الـذي ينتقـل بعـدها المريض من تحول إلى آخر، لأنه عادةً ما تكـون هـذه التحـولات متداخلة زمنياً ومتشابهة فيما بينها في بعض الملامح والأعراض، وإن كان هذا لا ينفي أن لكل تحول من التحولات ما يميزه عـن غيـره، خاصة في البدايات الأولى والمراحل الأخيرة.

كما أنه ليس بالضرورة أن يعـايش مـريض السـرطان هـذه التحولات بكافة مراحلها، وكل أعراضها وفـي درجاتهـا وأطيافهـا المختلفة، وإن كان ولابد أن يمر بشيء منهـا وذلـك بحكـم حالتـه

المرضية .. وما يتبعها من تغيرات نفسية وروحية، كل حسب تكوينه الشخصي وقوة إيمانه وأيضاً مواصفات المحيطين به.

وكل ما ذكرناه، وما سوف نذكره، ما هو إلا محاولـــة للتقريـــب شديدة الشبه لما يحدث عادة، وقريبة لما يكون عليه المريض في حالته النفسية والروحية، مع الأخذ في الاعتبار الفروق الفردية والظـــروف الخاصة والمكون الثقافي والديني والذي يختلف من مريض إلى آخر، هذا بالإضافة إلى مقدار ما يعرفه المريض عن حالته وما يدركه من إحتمالات تطورها مستقبلاً.

مع العلم أن مدة المرض، من حيث طولها أو قصرها، ليس لهـــا شأن خطير في معايشة المريض لهذه التحولات من عدمه. فقد يمـــر بها جميعاً في فترة وجيزة، وقد يعيش فترة طويلة داخل تحول واحد.

كما أود أن أؤكد هنا، إننا لا نكتب يوميات لمريض بالســرطان، بل نسجل تجربة شخصية، نتجت عن ملازمة مريض عزيز، قامــت على الملاحظة لسلوكه، ومحاولة لفهم ما وراء التغيرات التي تســتجد عليه من الناحية النفسية والروحية، والتي أثارت في نفسي ونفــوس المحيطين بالمريض الحيرة والدهشة. وقد عملت على تســجيل هــذه التجربة بكل أبعادها التي استطعت أن أدركها، وذلك في شكل يُســهّل للقارئ أن يتابعه سواء سعياً للمعرفة، أو للنفع في مجال خدمة مثــل هذه الحالات، أو للاقتراب من تجربة إنسانية شــديدة العمــق علــى المستويين الإنساني والروحي.

والتقسيم الذي اتبعناه ما هو إلا وسيلة لسهولة التعبير والمتابعـة، لأنه في الواقع يكون المريض طوال فترة إصابته بالسرطان، أشـبه بإنسان داخل منطقة بريق وظلال، فإذا ما لحق به بريق يكون كيانـه مضيئاً، وإذا ما لفته ظلال يكون كيانه معتماً، ويظـل هكـذا، حتـى تدركه نعمة اللّٰه فتضيء نفسه، فيصبح وإذ به في دائرة بهـاء اللّٰـه ونوره.

❖ ❖ ❖

وهذا التحول - الثالث والأخير - هو مرحلة الإحساس الذي ينتاب شخصاً قد تهيأ للرحيل بقبول، ليس ضيقاً مما هو فيه أو يأساً مما هو عليه، كما أنه ليس في حالة إقبال على الرحيل أو متعجل له. وبرغم أنه لم يعد يعاني من الخوف والذعر الذي ذاقهما قـبلاً، إلا أنـه لـم يتخلص تماماً من الضعف البشري. ولكنه إنسان قد ترك القيادة للّٰـه ووثق في إرادته الخيرة، فأخذ يعيش أيامه في سلام، ويمضي أوقاتـه في هدوء ورضى، يسأل في حب للإطمئنان عن كل أحد يتذكره، وكل شيء يثير اهتمامه، ويطمئن كل من يسأله عن حالته حتـى أطبـاءه، وإنه دائماً " في أحسن حال "، " والحمد للّٰه نشكر ربنا "، محافظاً على حالته الروحية باتصاله باللّٰه في شـكل دعـاء ... أو تأمـل ... أو صلاة ... وفي الحقيقة لقد أصبح في حالة روحية يصعب التعبير عنها أو وصفها بدقة. ولكن يمكن أن يوضحها هذا النقيض؛ من إنسان كان يطلب دعماً من كل أحد حتى ولو كان مجرد كلمة واهمـة أو أمنيـة

خادعة إلى إنسان أصبح كل من حوله يتمنون قربه ومحبته ويطلبون صلاته، بل إن البعض يطلب بركته!

❖ ❖ ❖

لهذا فإننا سوف نحاول بما هو متاح لنا أن ننقل بعض ومضات، ونعبر عن بعض لحظات يمكن أن تعيننا على تصور حالة هذا الإنسان الذي أصبح يصعب التعبير عنها .. ولك أن تثق عزيزي القارئ، أن ما سوف نذكره هنا هو بعض ما لمسناه .. وعايناه .. وحاولنا أن نعبر عنه بالكلمات.

والصفحات التالية تُعبِّر عن بعض من هذه الومضات .. وهذه اللحظات، التي مرت بها زوجتي أثناء عبورها المرحلة الأخيرة من هذا التحول خلال فترة مرضها والتي سبق وأشرنا إليها.

لذلك فهذا التحول، بهذا الشكل، له خصوصية تزيد كثيراً عن التحولات السابقة.

ولكتابة هذه الصفحات والتعبير عن هذا التحول في خصوصيته، قد عدت إلى بعض ما سجلته في أوراقي من خواطر وذكريات، والتي كنت أكتبها وقتذاك تعبيراً عن ألمي .. وحزني ..، وإذ بها الآن تصبح لي مصدر عزاء وتأمل. وما كتبته ليس له صفة التسلسل الزمني أو اتصال الأحداث، فما هو إلا خواطر وذكريات عن بعض ومضات .. ولحظات.

مع مراعاة أنني هنا لا أكتب سيرة زوجتي، فأنا لم أتعرض لمسيرة حياتها، ونجاحاتها في الحياة والعمل والمجتمع، ولا خدمتها وثمارها، أو ما قدمته لأسرتها وأبناءها، كذلك لم أتعرض لشخصها وما حظيت به من صفات وفضائل كانت محل إجماع وإعجاب، وكذلك لم أتعرض لما نالته من تكريم وتقدير سواء على المستوى الرسمي أو غيره، فقد تعرضت فقط لما إلتزمت به في مستهل هذه الصفحات، وتحديداً حالتها النفسية والروحية أثناء التحول الأخير، متجاوزاً الكثير من الأحداث والذكريات في هذه الرحلة القاسية.

❖ ❖ ❖

... لقد تحررت – المريضة – من الأمل في شفاء عاجل، وتخلّت عن الرجاء في أن تعود إلى سابق عهدها قبل المرض. ولكن يبدو عليها إنها تتمسك بوعد ما .. لن تتخلى عنه أبداً. فها هى وقد وثقت في إرادة اللّه ووعود الخالق، وفقدت الثقة في كلمات ووعود المخلوق، فقد بدى عليها جلياً إنها قد أخذت تتهيأ للإنسحاب وتستعد للرحيل، وكانت وكأنها تقوم بالرحيل في الزمان استعداداً للرحيل عن المكان.

لقد بدى لنا شيئاً .. فشيئاً، وكأن الوعد الذي تمسكت به بدأ يتحقق، بل قد أصبحت تراه رؤية العين، وهذا ما جعلها تقبل بالألم وتحتمله، وترضى بتصدع الجسد وهى مطمئنة، وإنسحاب الحياة منها

وهى في سلام. كانت تعيش في عالمها الحالي من أجل تحقيق الوعد الذي تتمسك به، في أن تنتقل إلى عالمها الذي تنتظره. لقد صار دليلها إليه إيمانها من كل القلب والنفس بأنه لا إرادة فوق إرادة اللَّه، ولا مشيئة أفضل من مشيئته. فصارت دائمة التحليق بروحها إنتظاراً لخلع الجسد وانطلاق الروح ..

... بدى عليها وكأنها قد حسمت إختيارها، وقبلت برضى أن تقدم الشيء الذي لا يمكنها أن تحتفظ به " حياتها " لكي تربح ذلك الذي لا يمكن أن تفقده " أبديتها " فصارت في حالة فرح رغم الألم، وسلام رغم اليقين باقتراب النهاية، لقد قبلت بكل شيء، واحتملت كل شيء، وهى تنتظر المراعي الخضراء، حيث لا يعوزها شيء، ولا يصيبها ألم أو خوف.

لقد أدركت إما اللَّه وإما اليأس، وقد اختارت اللّه وتمسكت به بكل قوة " **الرب نوري وخلاصي ممن أخاف، الرب حصن حياتي مما أرتعب ..** ". هذا ما تردده دائماً، وكأنها ترد به هاجساً هاجم يقينها، أو فكراً غريباً زعزع ما ارتضت به وتمسكت فيه، ألا وهو الصليب طريق الألم والنصرة.

❖ ❖ ❖

... لقد استندت بثقة على إيمانها بوعود اللّه الصادقة، ناظرة إلى يسوع معلقاً على الصليب، فسارت في طريقها وقد اعتمدت على سندها الوحيد ومعينها الذي تثق إنه لن يخذلها أبداً، فلم تعد تلتمس

دعماً من أحد أو من شيء، وطرحت عنها أية محاولة لإيجاد إجابة لتساؤلاتها، أو تفسيراً لِمَّا يحدث. حتى الأوجاع والتشوهات التي أصابت جسدها نتيجة للعلاج، لم تعد تعيرها إهتماماً، بل لم تعد تخاف المزيد منها.

لقد صارت تجد في نفسها ما تشكر اللَّه عليه، ويقولون أن الشكر في الألم أسمى درجات الصلاة ..

قالت صديقة لها: ماذا تفعلين هذه الأيام ؟! وكانت السائلة تقصد نظام العلاج.

فقالت : أفعل ما يُطلب منِّي !

قالت الصديقة لها (وهى مندهشة): وما هو المطلوب منك ؟!

فقالت : أُصلي بلا انقطاع،

أشكر في كل شيء،

لأن هذه هى مشيئة اللَّه في المسيح يسوع من جهتي.

واستطردت قائلة: أليس هذا هو المطلوب مني ! *

❖ ❖ ❖

... رغم التغيرات التي أصابت أغلب أعضاء الجسد، ما ظهر للعيان وما خفي، وذلك نتيجة العلاج بالكيماوي بثلاث أنظمة مختلفة على التوالي، وما يسببه ذلك من الألم بمعناه الواسع والأوجاع التي

---

*وهى بهذا تشير إلى ما جاء في رسالة تسالونيكي الأولى الأصحاح الخامس.

تفوق الاحتمال، إلا أن الوجه لم تفارقه ابتسامته الحلـوة، والحـديث يُبشر بالسلام الذي يملأ القلب. حتى أن إحدى الصديقات كانت كلمـا قامت بزيارتها جلست بالقرب منها تنظر إليهـا وتنصـت لحـديثها. وعندما لاحظت دهشةٍ البعض، قالت: " لا أملّ النظر إلى وجهها، أجد فيه شيئاً أحبه وأفتقده، حتى كلماتها البسيطة وكأني أسمع معانيها لأول مرة في حياتي ".

❖ ❖ ❖

... تتكلم كثيراً عن نعمة اللَّه، فتقول:

- لولا نعمة اللَّه ما كنت أستطيع أن أحتمل ما أنـا فيـه مـن آلام وأوجاع ...
- لولا نعمة اللَّه ما كان يمكنني أن أفعل ما أفعله، وتعـدد أفعـال كثيرة تقوم بها لنفسها.
- لولا نعمة اللَّه ما كان هذا العدد من الأحباء الـذين يزورونني ويشاركوني الصلاة والتعزية، ويُقدِّمون لـي الفـرح، والتـرانيم والوعظ وبركات كثيرة ...

وكان هذا تعبيراً عن إيمان قوي وإحساس عميق تجاه عمل اللَّـه في حياتها رغم كل ما أصابها.

في أحد الأيام حضرت قريبة لنا لزيارتها، وبمجرد أن رأت مـا صارت إليه حالتها من تدهور، وما تركه العلاج بالكيماوي عليها من

آثار، هالها ما رأت وصرخت قائلة: " كل الصلوات التي تُرفع لأجلك والأصوام التي تُقدَّم، وربنا لم يفعل شيء، ده بكلمة واحدة يقولها تشفي " فأراد الحاضرين اسكاتها وتهدأتها خوفاً على مشاعر المريضة ..

أما هى فقد فاجأت الجميع وفي هدوء أشارت إلى الزائرة المُتسائلة بأن تجلس قريبة منها، قائلة لها: " لقد فعل اللَّه الكثير وقال كلمة مهمة جداً أقعدي وأنا أقولها لك .. ".

فإنتبه الحاضرون، وقد جلست السيدة الزائرة وهى تردد متسائلة في إنفعال باكي وكأنها تعاتب ولا تعترض " قال إيه .. وعمل إيه، وإنت حالتك كده " !!

فقالت لها: " اسمعي، لقد قال اللَّه لي **تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تُكمَل** .. يبقى قال أم لا، ولما ربنا يوفر لي كل حاجتي، ويساعدني على احتمال حالتي يبقى عمل أم لا " واستطردت قائلة للسيدة الزائرة: " هو أنا يعني أحسن من بولس الرسول .. ؟! "*

فلم تتمالك السيدة الزائرة نفسها وانخرطت في بكاء شديد وهى تقول: " ياريت يكون لي إيمانك .. ياريت يكون لي إيمانك .. " وشاركها الحاضرون البكاء .. والدعاء ..



---

* مشيرة في ذلك إلى حادثة طلب بولس الرسول الشفاء من علة أصابته، المذكورة في رسالة كورنثوس الثانية ..

يا إلهي أشكرك على التعزيات التي قدَّمتها لنـــا بواســطة هــذه الإنسانة، التي كنا نظن أن من واجبنا أن نقدِّم لها التعزية، وأشــكرك لأنك جعلت من هذه المتألمة أداة لنا لمعرفتك أكثر والاقتــراب منــك أكثر. وصرنا نشعر بحضورك في حياتنا أكثر ومحبتك لنا أكثر ..

❖ ❖ ❖

... أدرك كل من حولها أنها وجدت في الصلاة .. والمناجاة، أداة تعبير وتعزية وفرح، فتركوها تتمتع بإقترابها من اللَّه وتفرح به، ومع الأيام ورغم ما أصابها صار وجهها يشع نـــوراً. وصـــارت عنـــدما تتحدث عن اللَّه، سواء في تأمل أو في صلاة، تصير وكأنها إتشــحت بالسلام وازدانت بالبهاء، لقد صارت مع الوقت وكأنها من مـــواطني السماء .. جاءت زائرة لنا .. وها هى تستعد للعودة.

... وفي أعقاب موجات الألم التي كانت تنتابها وتتركهـــا وقـــد صارت في غاية من الإنهاك والإعياء، وإذ بها كأن روحهـــا واقفـــة تقاتل بشجاعة وإيمان، وإن اللَّه سيفها ودرعهـــا، شـــبعها وفرحهـــا، باسمة، تاركة جسدها المتألم المُنهك، ومتجهة بروحها إلـــى الســـماء حيث البهاء والمجد. لقد صارت بالنسبة لها وكأنها في نطاق رؤيـــة القلب بل رؤية العين.

... دائماً إلى أمام، دائماً إلى فوق، متجاوزة آلامها، عابرة فوق معاناتها، وكأنها وقد أخذها منظر فسلب كل حواسها ولم يترك لها شيئاً منها للألم أو المعاناة. متجاوزة الخوف بفقدان الأمل في الحاضر، ومقاتلة اليأس بترك الرجاء في أرض الأحياء. تنظر بوعي إلى حيث لا خوف ولا يأس، حيث مُلتقى الأحياء، الذي يُجمِّع ولا يُفرّق أبداً.

❖ ❖ ❖

قالت لها : نحن في انتظار لمسة شفاء من اللّه القادر على شفائك ..
فردت قائلة: أنا في انتظار لمسة منه سواء كانت للشفاء أو غيره، فقط أن يلمسني.

❖ ❖ ❖

عفواً .. أكاد أن أضع قلمي وأكف عن مواصلة الكتابة، فعندما بدأت .. كنت أظن في نفسي، أنني قد عاينت الكثير، ولمست الكثير فأنني سوف أكتب عن الكثير أيضاً، وها أنا قد قاربت على الانتهاء من الكتابة وأشعر أن حصادي كان القليل من الحنطة والكثير من الهشيم، لأني لم أتنبه أن الكثير مما عاينته ولمسته يصعب عليَّ إدراكه أو التعبير عنه وإن كنت قد أحسست به بقوة.

ولكن عفواً مرة أخرى ... سوف أستمر ...، وسوف أحـــاول أن أستدعي شيئاً من مخزون الذاكرة .. ومما وِعاه العقل وتوجع له القلب وإحتفظت به الروح.

❖ ❖ ❖

قلت لها : أتمنى إنك تشفين، وأراكِ كما كنت قبل اصابتك بالمرض ..
قالتِ لي: أنا أتمنى أن تراني كما يريدني اللّه ..

❖ ❖ ❖

قلت لها: الطبيب يقول إنك في هذه المرحلة تـــزداد آلامـــك. فكيـــف تحتملين فوق ما أنت محتمله ؟!
قالت (في هدوء باسمة): لا تقلق ...
أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحملها ..
أخذ أسقامنا، وحمل أمراضنا.
واستطردت قائلة: ولا هذا مجرد كلام !!

❖ ❖ ❖

قالت الزائرة همساً: لم يترك المرض اللعين جزء من جسدها لـــم ينال منه.. ودمعت عيناها واختنقت كلماتها ولم تكمل..
وفوجئنا بصوت المريضة هادئاً وهى تقول، (وكنا نظـــن أنهـــا لم تسمع حديث الزائرة): وماذا أعمل بجلدي، وماذا أعمل بجســـدي

(يا فلانه)، سيفنى جلدي، وبدون جسـدي هذا سـوف أعاين اللَّه.*
فسالت الدموع من عيون الحاضرين في صمت ..

❖ ❖ ❖

نظرت إليَّ تتأملني، وقالت : لا تخف ..
فقلت لها : كيف لا أخاف وأنتِ تضيعين مني!
فقالت (وعلى وجهها ابتسامة): من قال أنني أضيع ! أنا لا أضيع، أنا في الحقيقة أوجد !
فقلت لها : لا أريد أن أسمع هذا الكلام، لسنا في وقت تأملات .. أرجوكِ.
فقالت (معترضة بحسم) : هذه ليست مجرد تأملات، إنها قوانين نحيا بها، وإلا كُنا ضعنا فعلاً من زمان، فلا تخف أرجوك.

... لقد استطاعت أن تحسم المعركة الدائرة داخلها إلى جانب اللَّه، واستراحت للسلام الذي ملأ نفسها ففرحت واستكانت، وحملت روحها جسدها فاحتملت، وسيطرت على عقلها فارتفعت، فأحسّت

---

* إشارة إلى ما ورد في سفر أيوب أصحاح ١٩ .

بتماسك روحها ونفسها وجسدها، وأصبحت فوجدت نفسها تتوحد بعد تبعثر، وتتجمع بعد تفرق، فصارت تحيا لحظاتها في قوة.

وأخذت تراقب المعركة التي خارجها، والتي يدور صراعها بين الدواء والأطباء، وبين الأمل واليأس، وبين الرجاء والخوف، وكأنها لا تخصها في شيء، ولا تعنيها في شيء، إنها تعني الذين مازالوا ينتظرون نتيجة هذه المعركة، أما هى قد سبقت وحسمت هذه المعركة أيضاً، ناظرة إلى صليب المسيح، رمز الألم والنصرة، فنالت نصرة الصليب وبركات الألم معاً ..

" كثيرون يقولون: من يُرينا الخيرات ؟

قد ارتسمَ علينا نور وجهك يارب.

أعطيت سروراً لقلبي ...

فبالسلام أضطجع أيضاً وأنام.

لأنك أنت وحدك يارب أسكنتني على الرَّجاء . " ❖

❖ ❖ ❖

... صارت وكأنها تنظر إلى عالم جديد .. جميل، تراه من بعيد. ثم أخذت تقترب منه رويداً .. رويداً، وكُلَّما إتضحت لها معالمه، كُلَّما أمعنت فيه النظر وأطالت فيه التأمل، وأخذت تدقق فيه للتعرف على

❖ من المزمور الرابع (أجبية)

تفصيلاته البهية. وعندما تعود من رحلتها هذه، تكون أكثر إشـــراقاً، وأكثر سلاماً .. ولا أتجاوز الحقيقة إن قلت إنها كانت تبدو وكأنها قد عوفيت وصارت أكثر قدرة على بث الطمأنينة والسلام فيمن حولهـــا. وتكثر من قول بعض العبارات التي أصبحنا ننتظرها لنســتمد منهـــا القوة، والدعم النفسي والإرتفاع الروحي. وكنا نلاحظ إزدياد قـــدرتها على معرفة ما يجول في خاطرنا، وقراءة أفكارنا، حتى تلك التي كنا نعمل على إخفائها عنها .. كانت تفاجئنا بأنها تعرفهـــا مثلمـــا نحـــن نعرفها.

❖ ❖ ❖

- هل أنتِ خائفة ؟
- ومما أخاف ! تقصد من الموت،
- ربما، مجرد خاطر ..
- قد أكون خائفة من الموت ولكن ثقتي في المسيح تجعلني لا أخاف مما وراء الموت. لأن الموت سوف ينتزعني من بين أحبائي، أما وراء الموت فهو مكان راحتي. أليس بهذا تؤمن ؟

❖ ❖ ❖

- فيما تُفكِّرين ؟!
- أنا في الحقيقة لا أفكر، أنا في حيرة، فكل مـــا حـــولي خـــوف، وحزن، وألم بل ودموع. في حين إنني أشعر أن ما بداخل نفسي

نقيض ذلك تماماً، فقلبي مملوء فـرح، ويشـمل نفسـي سـلام وإطمئنان. ولا أشعر بشيء يدعو إلى الأسى.

❖ ❖ ❖

- أطلبِ من اللَّه بلجاجة أن يشفيكِ، إننا في حاجة إليكِ.
- أنا أقبل بما يختاره لي اللَّه، فهو بالتأكيد الأفضل لي ولكم.
- ما هذا الكلام ! أطلبي أن تُشفي حتى ولو من أجلنا : أنا، وماري، وماجد*.
- أنا أتكلم بما أشعر به. وأُعبِّر عما في قلبي. حقيقة أنا لـم أعـد أعرف ماذا أطلب ! لم يعُد لي شيئاً محدداً، فقط أطلب ما يختاره اللَّه لي ولكم، وأثق في جميع الأحوال في محبته ورعايته.

❖ ❖ ❖

- اللَّه يحبكِ كثيراً ..
- أنا أعرف هذا طوال حياتي، ولكن الجديـد فـي الأمـر، أننـي أشعر بأنني أصبحت أحب اللَّه كما لم أحبه من قبل. أحبه كثيـراً وأشتاق إليه، اشتياقي إلى شخص أحبه ولم أنظره منـذ سـنوات طويلة.

❖ ❖ ❖

---

* أبناؤنا.

... كانت ترحل، بغير انتقال من المكان، كان رحيلها في الزمان، رحيلاً حياتياً، وكأن المكان أصبح لا يعني لها شيئاً حقيقياً، فتركت الرؤية إلى الرؤى، وتركت ما تعرفه إلى ما تسعى لمعرفته، وإنسحبت من بين الذين تعرفهم إلى الذين تشتهي أن تحيا بينهم.

❖ ❖ ❖

- ماذا يكون شعوركِ، لو تم إكتشاف دواء قادر على شفائكِ خلال أيام قليلة ؟!
- سوف أفرح، لو كانت هذه إرادة الرب. وسوف أفرح لأنه أراد لي الشفاء، وليس لأنني وجدت هذا الدواء !

❖ ❖ ❖

- هل تتألمين كثيراً ؟!
- أنا أتألم أكثر من دقيقة إلى أخرى.
- ولكن ما يبدو عليكِ من ألم لا يشير إلى هذا المقدار من الألم !
- لأنني طوال الوقت أطلب من المسيح أن يشاركني الألم فأجده قد حمل أغلبه عنِّي.

❖ ❖ ❖

- الطبيب المعالج يتعجب من قدرتكِ على تحمل الألم في هذه المرحلة ..

- الدكتور يعرف بحكم خبرته إنني في هذه المرحلة لابد لي أن أتألم كثيراً. ولكن هو لا يعرف من الذي يحمل عنِّي ألمي، ومن الذي يتحمل عنِّي وجعي. لهذا فهو متعجب.

⌖ ⌖ ⌖

- هل أنتِ قلقة علينا.
- لا. أنا غير قلقة تماماً. لأنني أثق في ذاك الذي حملنا وشملنا برعايته طوال فترة مرضي حتى الآن، أنه سوف يفعل كل شيء حسناً. أنا أثق في محبة اللَّه جداً، وأثق من رعايته لكم.

⌖ ⌖ ⌖

جاءت ابنتها بعد أن أدت إمتحان لها في الكلية إلى المستشفى حيث ترقد، وبعد أن طمأنتها على الإمتحان قالت لها: ماما أشعر اليوم أنكِ أحسن كثيراً من قبل.

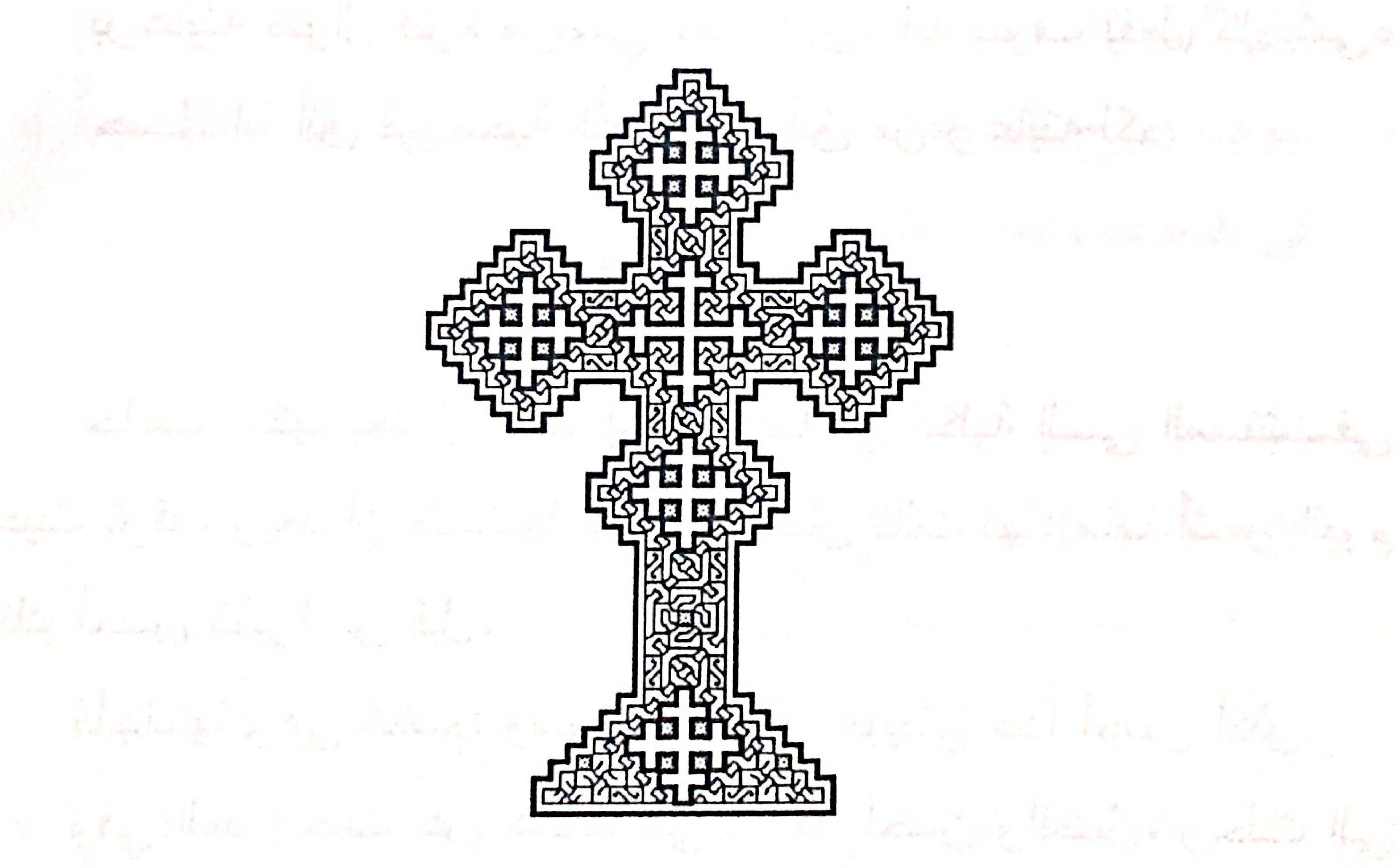
فأجابتها وهي تبتسم: وسوف أكون يا حبيبتي غداً أحسن أكثر.

وفي الغد رحلت عن عالمنا إلى ما هو أحسن وأفضل، رحلت إلى العالم الذي منذ أن أطلّت عليه أحبته وآمنت أنه الأحسن والأفضل.

" وقال اللَّه ليكن نور، فكان نور ".

✢ ✢ ✢

أراد اللَّه أن تكون التجربة التي سجلناها، عن حالة سرطان انتهت بانتقالها إلى الفردوس. ولكن لا شك أن هناك حالات مماثلة انتهت إلى شفاء، أو تعايشت مع المرض سنوات طويلة وتعيش على أمـــل فـــي الشفاء، ونحن نُصلِّي من أجل أن يمنحها اللَّه الشفاء.



ما بعد الرحيل ..

••••••••••••••••••••••••

... لقد انكشف لنا بعض من عالمها الذي كانـت تنتظـره فـي لحظاتها الأخيرة، عندما بدأت في ابتهاج تتكلم عن ألوان .. وأمـاكن جميلة، وتُردد عبارات ترحاب .. وعبارات تحية وإعجاب بأشخاص.. وأشياء كأنها تراها. وتتحدث عن إعادة الترتيب لأشياء لتكون أكثـر جمالاً .. وفي كل ذلك نحن حولها ولم نكن ندرك ما يحدث وما سوف يحدث بعد قليل. فلم ندري عما تتكلم، وربما في لحظة ظننا إنها نوبة ألم غيبتها عن الوعي. ولكننا قد عرفنا ما حدث، فعرفنا أنهـا كانـت تتكلم عن عالم جديد اتجهت للدخول إليه. وبدأ يفتح لها أبوابه .. وقد صارت على أعتابه .. أنه الفردوس .

❖ ❖ ❖

إن طريق الحياة أشبه بالنهر الذي يغير مجراه، فإذا بـدأ يجـف المجرى، فإنه لابد وقد بدأ يحفر له مجرى في مكان جديد لتجري فيه مياه النهر. فالحياة والموت أشبه بتغير المجرى فليس هناك جفاف .. ولا توقف للحياة عن الاستمرار، فالنهر في جريان دائم. فقط يتغيـر المجرى.

❖ ❖ ❖

زوجتي المحبوبة سوزان:

♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦

الآن أنتِ تتمتعين بالحرية، وقد انطلقتِ من قيود الجسد وقوانينه، وأنني أنا أيضاً أتوق إلى ذلك اليوم حسب وعود اللّه التي نثق بها. عندما نجتمع معاً مرة أخرى مع الرب .. في صحة تامة، وسلام كامل، وفرح لا يوصف.

لقد حصلتِ أنتِ على إكليلكِ أولاً وسنلحق بكِ يوماً ما في الوقت المعين، والآن لم يعد لي سوى أن أمد السمع عبر الأثير لعلي أستعيد بعضاً من صوتكِ الحبيب أو ضحكتكِ العذبة، أو أغمض عينيَّ لعلي أستطيع أن أسترجع شيئاً من ذكرياتنا الجميلة التي امتلأت بها سنواتنا الغالية، محتضناً في قلبي أجمل وأغلى ما أحببناه سوياً: ماري، وماجد.

موريس خليفه زخاري

٨ مايو ٢٠٠٤

أخذت تراقب المعركة التى خاضتها ،

والتى يدور صراعها بين الدواء والأطباء ،

وبين الأمل واليأس ، وبين الرجاء والخوف ،

وكأنها لا تخصها فى شىء ، ولا تعنيها فى شىء ،

إنها تعنى الذين ما زالوا ينتظرون نتيجة هذه المعركة ،

أما هى فقد سبقت وحسمت هذه المعركة

ناظرة إلى صليب المسيح ، رمز الألم والنصرة ،

فنالت نصرة الصليب وبركات الألم معاً ..